

الحرفيون ودورهم التاريخي في تطور المدينة العربية الإسلامية

نافذ سويد

مقدمة: موقف الإسلام والدين من الحرفيين:

موقف الإسلام والدين من الصناعة والحرف موقفاً واضحاً لا لبس فيه فالعمل كان **يجد** ولا يزال هو ميزان تقدم الأمة، والمهارة في إتقانه هي مقياس الحضارة، والوفاء بالعمل هو الهدف الذي يسعى إليه الإصلاح الاجتماعي. قال الرسول (ص): إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه". وحضّ الدين الإسلامي على العمل، وأكد حرمة. وجعل الإنتاج عبادة وتقرباً إلى الله، بل جهاداً في سبيل الله. قال تعالى: "وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون"^(١) وأكد الله عظمت قدرته حماية الدولة لحقوق العمال ثم إعطاء كل عامل على قدر ما يستحق من إتيان "فاستجاب لهم ربهم إني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض"^(٢). وقال سبحانه: "ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون"^(٣)، وقال تعالى: "وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى"^(٤). وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يرى ثم يجزيه الجزاء الأوفى"^(٥). أفضل الأعمال الاكتساب للانفاق على العيال. وفي الحديث الشريف "طلب الكسب فريضة على كل مسلم، كما أن طلب العلم فريضة"^(٦).

(١) قرآن كريم - التوبة ١٠٥.

(٢) قرآن كريم - آل عمران ١٩٥.

(٣) قرآن كريم - الأحقاف ١٩.

(٤) قرآن كريم - التكليف ٨٨.

(٥) قرآن كريم - انجم ٤١/٣٩.

(٦) محمد الحسن الشيباني: الكسب، مخطوط، تحقيق سهيل زكار ط ١ دمشق ١٤٠٠ هـ. ١٩٨٠ ص ١٩/٣٣/٦٢ انظر صبحي الصالح، انظم الإسلامية، نشأتها وتطورها، بيروت ١٩٦٥ ط ٥٢ ١٩٦٨، ص ٣٩٨.

وجاء عن الخليفة عمر (رضى الله عنه) "أنني لأرى الرجل فيعجبني فأقول هل له حرفة؟ فإن قالوا لا سقط من عيني". ومن شروط العمل الصالح في الإسلام إتقانه على الصعيدين الفني والعلمي وعدم الغش فيه لأن ذلك يلحق الضرر بالأفراد والمجتمع، ثم إنجازه في موعده المحدد، وأن لا يخادع به ولا أن يكذب، ولا أن يحلف الأيمان الكاذبة لأجله. قال محمد (ص) اليمين الفاجرة منفعة للسلعة محقة للكسب "هذا التوجه العام الإسلامي، ساعد على ارتقاء الحركة الحرفية والصناعية وتطورها وانخراط العرب في الصناعة ووصولهم للمهن واستلامهم زمام الأمور فيها، وبعد أن كان العربي يأنف من العمل في الحرف، وينظر إلى العاملين بها نظرة ازدراء، لأنها في عرفهم حرف وضيعة خلقت للعبيد والموالي ولاتليق بالأحرار، وكان الشريف منهم وصاحب الجاه لا يحضر وليمة يدعوها إليها رجل من أصحاب هذه الحرف وذلك لأنه ليس في مكانته ومنزلته، وجاء الإسلام ليغير هذا المفهوم ويعمل الرسول (ص) لقلب هذه المفاهيم وعد حضوره منازل أصحاب هذه الحرف وقبول طعام الخياط والصائغ وأمثالهما، عملاً فيه خروج عن المألوف ومخالفاً للأعراف والتقاليد التي كانت تحقّر الحرف والمحترفين وتحط من مكانتهم.. وبعد أن كان العربي يرفض الأسماء التي لاتدل على الأصل والحسب، ويحتقر النسبة إلى الصناعات كالصبغة والحدادة وغيرهما^(٧).

ثانياً- النشأة التاريخية للحرف في الوطن العربي في ظل الإسلام:

فما أن جاء الإسلام حتى رفع مكانة العمل والعمال والصناع بوجه عام، وشيئاً فشيئاً بدأت الحرف تلقى القبول وينخرط فيها العربي كغيره، وتبدأ منذ القرن الثالث الهجري والتاسع الميلادي. بدؤوا يقبلون أسماء وألقاباً تدل على الصنعة. وغدونا، نسمع، ونرى، ونجد أحمد الحداد وجعفر البقال وسعد الغزال، وتأكد هذا فعلاً خصوصاً منذ بداية العاشر الميلادي. ولانستغرب أن يأنف العربي من بعض الصناعات ويعدها غير لائقة لاستعمالها بعض المواد غير النظيفة كالدباغة مثلاً، كما عدّوا الصباغة مخالفة لقواعد الدين، ولهذا كان الصيارفة، والصباغون من اليهود في معظم مناطق الدولة الإسلامية، خصوصاً في بلاد الشام^(٨). لكن التوسع الذي حدث بعد انتشار العرب المسلمين بين الموالي وأهالي البلاد المفتوحة، وعمليات الاختلاف والتمزج التي تمت بين الأقوام المختلفة التي انضوت تحت راية الإسلام أدى إلى عمل الجميع على الحفاظ على التراث الحضاري القديم في الميادين المختلفة، كما ساهم العرب وغيرهم في تطوير الصناعة الحرفية.

^(٧) راضح انصتد: الصناعات والحرف عند العرب في العصر الجاهلي، ص ٢٠١-٢٠٢- جواد علي: الفصل في تاريخ العرب ج ٧- ص ٥٤٣.

^(٨) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي المعروف بالبشاري من علماء النصف الثاني من القرن الرابع أو النصف الأخير من القرن العاشر الميلادي ت ٣٨٧هـ- ٤٩٧هـ: أحسن التفاضيم في معرفة الأقاليم ليدن ١٩٠٦، ص ١٨٣، انظر الأمير علي الحسيني: تاريخ سورية الاقتصادي مطبعة بدائع الفنون - دمشق ١٣٤هـ، ص ٩٣.

ثالثاً- علاقات السلطات العربية الإسلامية بالحرفيين:

قامت السلطات العربية الإسلامية بواجباتها تجاه الحرفيين، وكفلت لعمالها من أرباب الحرف والصناعات حرية واسعة في ممارسة أعمالهم، ولم تتدخل فيها إلا على نحو محدود، وفي الصناعات التي كان يتطلب قيامها الحصول على إذن خاص مثل إنشاء حمامات، وصنع الأسلحة وسك النقود، وتركيب الأدوية، والعمل في دور الطراز، وكل ذلك يعود إلى أسباب تتعلق بالأمن الجماعي، والمصلحة العامة^(٩).

وتقدمت الصناعات الحرفية بتوالي الأجيال، ووفرة المواد الخام الزراعية والمعدنية، وتقدم العمران البشري في المدن الإسلامية غير أن الصناعات استمرت تعتمد على الصناعات اليدوية، وبقيت السلع تصنع في الورش وفي البيوت أو في المحال والحوانيت، وكان العامل يبيد في هذه الورش الصناعية مهارة وخبرة وصبراً مما أعطى الإنتاج على الرغم من قلته صفة الاتقان وطابع الطلاوة^(١٠). لكن استمرت الحالة العامة للعمال اقتصادياً على الأغلب متواضعة، وتكفي ضرورات الحياة المعيشية فقط، واستمرت متفقة مع القول المأثور (صنعة في اليد أمان من الفقر، وأمان من الغنى) ولهذا عد أهل الحرف في عداد العامة أو الفئات الدنيا في المجتمع الإسلامي.

وعلى هذا الأساس لانستغرب أن تكون الصناعة وأربابها موضع عطف واهتمام الكثير من المفكرين والكتاب العرب المسلمين، وقام هؤلاء وأفردوا لها الفصول والرسائل في مؤلفاتهم، ومثال ذلك مانجده في رسائل إخوان الصفا، ثم صاغه فيما بعد المؤرخ والعالم الاجتماعي الكبير ابن خلدون عن الصنائع في مقدمته.

رابعاً- الصنائع وطوائف الحرف، والأصناف ودورهم التاريخي في تطوير المدينة العربية الإسلامية:

أ- المدينة:

تشير الأبحاث اللغوية إلى أن كلمة مدينة تعود أصلاً إلى كلمة "دين" ولهذه الكلمة أصل عربي وهي آرامية الأصل وعرفت عند الأكاديين والآشوريين "بالدين" أي القانون كما أن الديان في اللغة الآرامية "القاضي" وأن مصدرها في الآرامية "مدنيتا" وتعني القضاء ولهذا يرجح أنها تطلق خاصة على المكان الذي يكون فيه القضاء دليلاً على معنى القانون أو العدالة، ولعل كلمة (ديان) جاءت منه بمعنى القاضي أو المحاسب، وورد في سنن البيهقي عن الخليفة الفاروق قوله (ويل لديان الأرض من

(٩) صالح أحمد العلي: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري، ص ٣٠٦.

(١٠) جاك ريلر: الحضارة العربية، ترجمة غنيم عبّون، الدار المصرية للتأليف والنشر، ص ١١٨.

ديان السماء) وهي المكان الذي يؤمن فيه العدل والأمن أكثر من غيره، فهي مقر السلطة الحاكمة التي تقيم الحدود، وتتفد فيها الأحكام. ويسير في الاتجاه نفسه تعريف بعض الجغرافيين (المصر) حيث يورد المقدسي^(١١) (أنه كل بلد جامع تقام فيه الحدود وعليه أمير يقوم بنفقته ويجمع رستاقه) كما يتصل التفسير الفقهي للمدينة أيضاً بهذا المفهوم إذ إن أبا حنيفة ذكر (أن صلاة الجمعة إنما تختص بها الأمصار دون غيرها، وأنه لايجوز إقامتها في القرى).

واعتبر أن المصر هو المكان الذي يوجد فيه سلطان يقيم الحدود وقاض ينفذ الأحكام. والمدينة لاتسمى بهذا الاسم إلا إذا كانت مقراً لصاحب السلطان، أو من يمثله، فإن كان الخليفة كانت المدينة، وإن كان والي إقليم أو كورة فالمدينة عاصمة هذا الإقليم أو الكورة، وإن كان السلطان قائداً على الثغور فالمدينة قاعدة لهذا الثغر أو حصناً استراتيجياً فيه. وفي المدينة تجمع الأعداد الكبيرة من العمال والحرفيين من مختلف الأجناس والأديان ويسكنون بمساكن متقاربة، ويتصلون بعضهم ببعض في حياتهم اليومية في الأسواق تجمعهم روابط اقتصادية واجتماعية وفكرية وثقافية وظروف حياتية متقاربة، كل في مجال تخصصه، وهذا ماساعد على قيام نظام الحرف والطوائف والتكتلات الصناعية التي عرفت بأسماء متعددة، مثل الأصناف، وأرباب الصنائع وأصحاب المهن أو أهل الحرف، وهي كلها تعابير تعطي معنى الجماعة لأبناء الصنعة الواحدة وفي المدينة العربية الإسلامية ونموها وتطورها وتقدمها وتوسع الحياة الاقتصادية وتعقدها، ازداد الشعور المشترك بين أصحاب كل حرفة، وصار لهم فيها نظام أو عرف يكفل لهم الحماية من المنافسة ويرفع من مستواهم المادي والفني، ويعمل على تدريب الأبناء الجدد أو المبتدئين في الصنعة، وتهينتهم التهيئة المناسبة واللازمة للمهنة، لكي يكون إنتاجهم في غاية الكمال، وبذلك حدث التطور في المدينة وترقى المدينة بإنتاج حرفيها وتصبح مركز جذب للحرفيين المهرة.

ب- الشكل التنظيمي للحرفة:

كان لكل حرفة رئيس أو شيخ لقب بالأمين في المغرب، والأسطى أو المعلم في مصر والعريف في الشام ومناطق أخرى، وكان تعيين رئيس الحرفة أو الطائفة أو شيخها، يتم إما بالاختيار أو الانتخاب، وبحضور المحتسب وموافقة، وهذا يدل على أن الدولة تتدخل في اختيار الرؤساء وشيوخ الحرف أو أنها تشرف الإشراف الدقيق على المهن وحسن سير الأمور فيها، وهذا الشيخ يعد الخبير الفني للمهنة أو الحرفة. ورأيه استشاري وهو مقبول عند القاضي والمحتسب، وهو الذي يقوم بإبلاغ الطائفة الحرفية المعلومات المطلوبة عن السلطة التي تخص مهنته، كما يؤخذ رأيه في تحديد كلف السلع وثمانها في أثناء البيع أو التقدير وغير ذلك من أمور متعلقة بالمهنة^(١٢).

(١١) المقدسي: المرجع الرابع، ص ٤٧. انظر محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية - مجلة عالم المعرفة، ص ١٧/٤٧ - العدد ١٢٨ الكويت آب ١٩٨٨.

(١٢) ليفي برونفستال: محاضرات في أدب الأندلس وتاريخها، ص ٨٩.

وكانت العادة أن يتدرج الصانع في الحرفة وتبدأ بالانتساب لها لمبتدئ أو لصبي صغير، ثم إلى عامل، أو صانع مدرب، وينتقل بعدها إلى أن يصبح معلماً. ومنها إلى الرئاسة.... ويتم ترقيته إلى رتبة المعلمية باحتفال رسمي، لما لهذه النقلة من أهمية تمكنه من الوصول إلى المعلمية والرئاسة، ويجري في هذا الاحتفال قراءة الفاتحة، والتراتيل الدينية، ثم تتم بعد ذلك مراسم الشد، وذلك لشد وسطه بحزام مع عقد عدة عقد من قبل كبار المعلمين الحاضرين هذا الاحتفال ثم يقوم بعد ذلك بارتداء ملابس خاصة يعرف بالسروال، ويوضع شال على كتفه، ويذكر في هذا الاحتفال بواجباته المهنية ويؤخذ عليه العهود بالتزام هذه الواجبات وعدم الخروج عنها، والإخلاص لها، وهي بمجملها تستند إلى التحلي بمكارم الأخلاق وأهمها القناعة، والصبر، والتواضع، ومن ثم الإخلاص للعمل ومعلمه وأسرته وينتهي الاحتفال بعد تناول الطعام على شرف المحقق به يقدمها لهم للصبي المرقى^(١٣).

ت- وظائف الحرفيين أو الطوائف المهنية في المدن العربية الإسلامية:

ويمكن أن نجل وظائف الحرفيين في المدن العربية الإسلامية بالمهام الآتية:

١- تعليم أسرار المهنة للصبي، وتحديد علاقتهم بمعلمهم يشبه عقداً أو التزاماً بين المعلم والصبي.

٢- المراقبة الفنية لجميع العاملين بالمهنة الواحدة، ومنع الغش وحماية المجتمع من التلبس الذي قد يحدث في سوء الصناعة.

٣- المشاركة في تحديد الأجور وأسعار السلع. وفرض المنازعات بين أفراد الطائفة الواحدة.

٤- ويعد الشيخ أو الأمين أو العريف المسؤول عن الطائفة أمام ممثل السلطة الحاكمة في السوق، وهو على الأغلب المحتسب^(١٤). في معظم المدن العربية الإسلامية، ويمكن أن تشبه أعمال هذه الطوائف أو الأصناف المهنية بنظام النقابات سواء في أوروبا أو غيرها في بعض الأمور. لكن الهام أن هؤلاء الحرفيين بمجملهم كانوا من الطبقات العامة في المجتمع في المدينة العربية الإسلامية، وهم بحكم هذا الموقع أسهموا إسهاماً كبيراً في حياة المدينة والمجتمع. فيها فقد وجدهم يشاركون في النشاطات كافة منها الإيجابية كالاحتفالات والمواكب العامة في الأعياد والمواسم وغيرها من الأفراح.

وكانت لهم نشاطات سلبية كانخراطهم في الثورات الشعبية، والمجموعات السرية، والعمل ضمن توجهاتها وفرقها الدينية والعسكرية وغير ذلك.... ففي بلاد المغرب العربي انخرط معظم أهل الحرف في الطرائق الصوفية التي ظهرت بكثرة في الشمال الأفريقي، وكما انخرط هذا النوع من

^(١٣) برنارد لويس: انتقابات الإسلامية "ترجمة الدوري" مجلة الرسالة سنة ١٩٤٠ الأعداد ٣٥٥/٣٥٧/٣٦٢. انظر سعيد عاشور: اجتماع المصري في عهد سلاطين المماليك ص ٣٦، وحلي سام: اقتصاد مصر الداخلي في العهد المماليكي: ص ١٩٦.

^(١٤) راشد إبراهيم: حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ص ١٩٤/١٩٧.

❖❖❖ التراث العربي ❖❖❖

الفتوة الصوفية في شرق الدولة العربية الإسلامية في خراسان ولاسيما في نيسابور. والتي عبر عنها عمر النيسابوري الحداد عام ٢٦٠هـ/٨٧٣م/ موضحاً هذا التوجه الصوفي بقوله: وسئل بعضهم من يستحق اسم الفتوة؟ فقال: من كان فيه اعتذار آدم، وصلابة نوح، ووفاء إبراهيم، وصدق اسماعيل، وإخلاص موسى، وصبر أيوب، وبكاء داود، وسخاء محمد (ص) ورأفة أبي بكر، وحمية عمر، وحياء عثمان، وعلم علي، ثم مع هذا كله يزدرى نفسه ويحتقر ما هو فيه^(١٥).

ولما كان إلى جانب هذا النشاط الصوفي النقشفي لهؤلاء الحرفيين لاسيما الفقراء منهم، نشاطات أخرى اتجهت اتجاهاً معاكساً واتصفت بطابع العنف أو اتجهت اتجاهاً سرياً، ومن الأمثلة على هذه التوجهات إقبال العديد من أهل الحرف والصناع والانخراط في الدعوات السرية الاجتماعية كالقرمطية، ودعوتها التي قامت على حمدان قرمط وغيره بالعراق في القرن الثالث الهجري نتيجة لسوء التوزيع الاقتصادي والخلل الذي حدث في المجتمع من جراء ذلك، وقاد لتوسع الدعوة القرمطية، وقيام دولة لهم في البحرين، ونشاطها في العراق والشام، ووصل خطرهما حتى مصر. وحظيت بتأييد كبير من أصحاب المهن والحرف والمعذنين، وتعرض المجتمع العربي الإسلامي لهزات عنيفة لانخراط الحرفيين بهذه الحركة وغيرها من الجماعات كالعيارين والشطار وغيرهم من الفتيان، والأحداث في شرق العالم الإسلامي وغربه والتي رفعت شعارات تطبيق المساواة والعدالة الاجتماعية، والاستيلاء على الأموال والثروات وبطرائق مختلفة، ولا أرى ضرورة لشرح هذه الطرائق. ولهذا لانستغرب أن يوصفوا بصفات مذمومة، كالرعاع- العراة الاندال للصوص... على الرغم مما اتسموا به من صفات فروسية تبعدهم عن أخلاق للصوص العاديين، وأهم شعاراتهم الثورة على السلطة وأصحاب الأموال، ورفض الأوضاع الاقتصادية السائدة، والتي كان العديد منهم يرون أنها خرجت عن الشعائر الإسلامية وعدالتها الاجتماعية، ومن خلال هذه الرؤية، وهذا التوجه أعطوا أنفسهم حق الاستيلاء عليها وتوزيعها على الفقراء منهم. وكانت معظم الحركات من عيارين وشطار، في بغداد، في الظاهر عصابات من للصوص وضعت أمام نفسها نهب الحوانيت والأسواق وبيوت الأغنياء. لكن جذور الحركة هي في الواقع رغبة هذه الطبقات المنكوبة حالياً الثأر من الأغنياء نتيجة الانحطاط السياسي، والارتفاع في الأسعار، من دون أن يرافقه ارتفاع مماثل في الأجور، إضافة إلى احتكار المواد الغذائية من قبل التجار والأثرياء^(١٦).

وأتم وصف للحرف والمهن والصنائع، ما نجده من رسائل إخوان الصفا، ففيها نجد الحرف مصنفة بأشكال مختلفة، ووفق أسس متعددة، وإخوان الصفا جمعية سرية سياسية دينية انتشرت في أقاليم كثيرة في القرن الرابع الهجري -العاشر الميلادي. وطرحت شعاراتها ضمن رسائل هدفت من خلالها إلى إسعاد النفوس وتهذيبها، ومايهمنها منها هنا أنها وجهت عنايتها خاصة إلى العمل وإلى

^(١٥) ورد هذا النص في كتاب الملامية للسلمي، مخطوطة بيرلن عن جبر النذر.

النشر: الفتوة هل هي الفروسية الشرقية -دراسات إسلامية: ص ٢٢٠، بيروت ١٩٦٠.

^(١٦) جرجي زيدان: التمدن ج ٥، ص ٤٧- النوري: تاريخ العراق ص ٦٨.

الصناع، وأثبت عليهم وعلى شرف الصنائع والحرف وقالت: (إن من لاصناعة له متكبر كأولاد الملوك، أو أنه كسول جاهل، أو زاهد ورع لاتهم أمور الدنيا، وصنف إخوان الصفا الصنائع حسب فائدتها على النحو التالي:

الصنائع الضرورية للمجتمع:

(كالزراعة الحياكة والبناء) ثم صنائع تأتي في الدرجة الثانية، فهي إما تابعة للأولى أو متممة لها ومكملة، فمثلاً لا تتم الحياكة إلا بالغزل، والغزل لا يتم إلا بصناعة الحلج، فأصبحت صناعة الغزل وصناعة الحلج تابعة للحياكة، كما أن الخياطة لازمة لعمل الملابس من النسيج، فصارت الخياطة متممة للحياكة، ثم هناك ثالثاً صنائع للجمال والزينة، أمثال صنائع العطور والحريير والوشى، كما صنفاوا الصنائع حسب موضوع الصناعة إلى نوعين:

أولاً- الصنائع الروحانية، وتشمل المهن الفكرية، ثم الصنائع الجسمانية وتشمل الحرف اليدوية،

وهذه صنفّت إلى صنفين، الأولى التي يكون موضوعها بسيطاً: مثل الماء -كالسقاين والملاحين والسياحيين -الخ والتراب (كحفاري الآبار والأنهار والمعادن -الخ) والنار (كصناعة النفاطين والوقادين والمشعلين) والهواء (كصناعة الزمارين والبواقين والنفاطين اجمع) أو الماء والتراب (كصناعة الفخارين والغضارين، وجرابي اللبن).

ثانياً- النوع الثاني: الصنائع التي يكون موضوعها مركباً،

وهذه ثلاثة أنواع: وهي الأجسام المعدنية، ومنها (الصفارين والحدادين والرصاصين والصواغين) ثم النباتات، والصناعات من هذا النوع إما أن نتناول أصول النبات من الأشجار والقضبان والأوراق لصناعة النجارين والخواصين والبوارين والحصريين والأقفاصيين ومن شاكلهم أو أنها تتناول لحاء النبات كصناعة الكتانين ومن يصنع القنب والكاغد أو أن نتناول ثمر الأشجار وحب النبات كصناعة الرقاقين، والقطارين والبزارين وكل من يخرج الادهان من ثمر الشجر وحب النبات، ثم الحيوان، والصناعات هنا عامة كصناعة الصيادين ورعاة الغنم والبياطرة، أو تتناول إنتاج الحيوان كصناعة الدباغين، والأساكفة، أو الطبّاخين، ومن الصنائع ما موضوعها أجساد الناس كصناعة الطب والمزنيين ونفوس الناس كصناعة المعلمين^(١٧).... كما صنف الإخوان الصنائع تصنيفاً.

^(١٧) إخوان الصفا، ج ١١٣-١١٥/٢٢٠- الفارابي إحياء العلوم.

ثالثاً- حسب قيمة إنتاجها فهي تتفاضل من حيث:

أولاً- قيمتها، والحاجة إليها، ثم فائدتها بالنسبة إلى الناس. كما صنّفوها تصنيفاً رابعاً حسب الأدوات والآلات المستعملة فيها ولهذه الدراسات والتصنيفات فوائد جمة كثيرة فهي تدل على نطاق الصناعات الموجودة في عهدهم والفترات التي سلفت والأهم من ذلك أنها تلقي وتوجه الضوء على الفكر الاقتصادي في تلك الفترة... ويتضح أن المهن كانت وراثية، وكل صانع يفضل حرفته على جميع الحرف، ويوضح الجاحظ هذا التوجه^(١٨) بقوله: لكن لكل صنف من الناس مزين عندهم ما هم فيه وسهل ذلك عليهم، والحاكك إذا رأى تقصيراً من صاحبه أو سوء حذف أو خرقاً قال يا حجام، والحجام إذا رأى تقصيراً من صاحبه قال له: يا حائك، ومع كل هذا وذاك عدت بعض المهن شائنة حتى ينظر العامة مثل مهنة البوابين والقوادين والمشعوذين^(١٩).

ث- الخاتمة- الصانع والطوائف الحرفية:

وهؤلاء طائفة من الناس وصفوا بأنهم يعملون بأبدانهم وأدواتهم في مصنوعاتهم الصور والنقوش والأصباغ والأشكال، وغرضهم طلب العوض عن مصنوعاتهم لمصلحة معيشة الدنيا. وكان الصانع يقسمون من حيث العمل إلى فئتين، الأولى تضم المشتغلين بأجرة وهم الصانع الذين يعملون في المؤسسات الخلافية وفي دور الضرب أو في محلات التجارة الكبيرة، أما الفئة الثانية فهم يعملون لحسابهم الخاص بما في ذلك المبتدئون^(٢٠)... وكانت البضائع في أكثر الأحيان وراثية يأخذها الأبناء من الآباء، وفي حال تعلم الأبناء لصناعة الآباء والأجداد فإنهم يتقنونها^(٢١) ويصبحون بارعين فيها، وعلى ما يبدو أن أكثر المشتغلين بالصناعة كانوا من أهل الذمة. ولقد قويت فيما بعد الروابط الاجتماعية بين أصحاب الصنائع، وغدا كل صانع يشعر برابطة الانتماء إلى أصحاب حرفته وصنعتة، وكثيراً ما عقد أهل الحرفة الواحدة الاجتماعات للتشاور والتباحث في أمور مهنتهم ثم أخذت تظهر فيما بعد تنظيمات لأهل الحرف تدفعهم لذلك ظروف المهنة، وأخذت هذه التنظيمات تميل نحو التكتل والتنظيم لتأمين مصالحهم المشتركة وكان لكل حرفة رئيس من بين أعضائها تعينه الحكومة أو شيخ الصناعة أو الرئيس، ويقوم بتنظيم أمور العاملين، ويعمل على حل المشكلات والخلافات التي تحدث في حرفته، كما كان يقوم بدور الوسيط بينهم وبين السلطة الحاكمة، ويليه الأستاذ وهو متقدم في المهنة ويأتي بعده الصانع وهو الذي يعلم المهنة، ويمكنه أن يفتح محلاً خاصاً به ويمارس عمله

(١٨) الملاحظ رسائل، ص ١٤٦- الدوري تاريخ، ص ٨٨.

(١٩) الدمشقي: الإشارة، ص ٤٢/٤٣.

(٢٠) إخوان الصفا: رسائل، ج ١، ص ٢١٧- الدوري: نشوء الأصناف والحرف في الإسلام، ص ١٥٣. مقال: مجلة كلية الآداب بغداد، عدد لسنة ١٩٥٩.

(٢١) إخوان الصفا: رسائل، ج ٢، ص ٢٢٣، أبي يوسف الخراج، ص ٦٩/٦٩. البغدادي: تاريخ البغداد ج ١، ص ١٧٦- أحمد صالح علي: التنظيمات الاجتماعية في البصرة ٩٢.

❖❖❖ التراث العربي ❖❖❖

بصورة مستقلة، ويلي هذا المبتدئ، وهذا منتتم إلى الصنف ويقوم بالتدرب على أيدي الصانع، وكل هذا وذلك أدى إلى تنظيمات متطورة قادت إلى نشأة^(٢٢) النقابات الخاصة بالمهنة أو الحرفة والتي كانت تستهدف تبادل المعونة والدفاع عن مصالح الحرفة، وكان المحتسب يشرف على حسن سير الأعمال بكل حرفة.

وعاش معظم الحرفيين في المجتمع حياة متوسطة، وربما أدت بعض الظروف السياسية الخاصة إلى ضيق أحوالهم المادية، لهذا كثيراً ماكانوا يساهمون بدور نشط في الحركات الاجتماعية التي تقوم ضد السلطة الحاكمة، وهؤلاء كانوا يتطلعون لتحسين أحوالهم الحياتية والمعاشية وبذلك كانت حركة الحرفيين تعمل على ضبط إيقاع مسير الأنظمة التي تخالف التشريعات الإسلامية وإعادة هذه الأنظمة إلى جادة الصواب، وأيضاً كانت تمارس الأسلوب نفسه في ضبط سلوك الأغنياء.



□ المصادر المطبوعة:

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- البغدادي: الخطيب، البغدادي: (ت ٤٦٣هـ/١٠٧٠م) أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد: تاريخ بغداد أو مدينة السلام ١٤ جزءاً مطبعة السعادة القاهرة، ٣٤٩ وطبعة مكتبة الخانجي القاهرة ص ١٩٣ وطبعة دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٣١.
- ٣- البيهقي: إبراهيم بن محمد، ت ٩٣٣/٣٢٠م/ المحاسن والمساوي، جزءان، تحقيق أبو الفضل إبراهيم القاهرة ١٩٦١.
- ٤- الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ/٨٦٩م رسائل).
- ٥- ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد، ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م مقدمة ابن خلدون طبع دار الشعب المصرية القاهرة. وطبعة منشورات الأعلمي بيروت ١٩٧١م.
- ٦- الدمشقي: أبو الفضل جعفر بن علي الدمشقي (عاش في القرن السادس الهجري: الإشارة إلى محاسن التجارة دمشق ١٣١٨هـ.
- ٧- الشيباني: محمد بن الحسن الشيباني (ت ١٨٩/١٨٠٤م الكسب مخطوط تحقيق د. سهيل زكار طبعة أولى دمشق ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م، ص ٢٣/١٩.
- ٨- الصالح: صبحي النظم الإسلامية، نشأتها وتطورها، بيروت ١٩٦٥ ط ٢/ ١٩٦٨.
- ٩- إخوان الصفا: رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، ٤ أجزاء بيروت سنة ١٩٥٧.
- ١٠- المقدسي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي المعروف بالبشاري من علماء النصف الثاني من القرن الرابع والنصف الأخير من القرن العاشر الميلادي ت ٣٨٧/٩٩٧م. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم لين ١٩٠٦.

^(٢٢) عبد العزيز النوروي: نشوء الأصناف والحرف في الإسلام، ص ١٥٤، مقال مجلة كلية الآداب بغداد عدد لسنة ١٩٥٩. انظر برنارد لويس: العرب في التاريخ، ص ١٣٠- فهمي عبد الرزاق سعد: العامة في بغداد، ص ٦٥.

❖❖❖ التراث العربي ❖❖❖

- ١١- أبو يوسف القاضي يعقوب بن إبراهيم (١١٢هـ/٧٣٠) كتاب الخراج المطبعة السلفية القاهرة ط٤، ١٢٩٢هـ.
- ١٢- البراوي راشد: حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين مطبعة النهضة المصرية ١٩٥٨م.
- ١٣- بورقشال ليلي: ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسية مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٥٥، انظر محاضرات في الآداب الأندلسي وتاريخها، ص ٨٩.
- ١٤- الدوري عبد العزيز: النظم الإسلامية بغداد ٩٥٠ تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري (مطبعة المعارف بغداد ١٩٤٨).
- ١٥- زبدان: جرجي تاريخ التمدن الإسلامي ٥ أجزاء مراجعة حسن مؤنس دار الهلال القاهرة ١٩٦٨.
- ١٦- صالح أحمد الطي: التنظيمات الاقتصادية والإدارية في البصرة دار الطليعة بيروت ط١ ١٩٥٣، وط٢ ١٩٦٩.
- ١٧- ريسلر جاكس: الحضارة العربية ترجمة غنيم عبدون الدار المصرية للتأليف والنشر.
- ١٨- برنارد لويس: النقابات الإسلامية ترجمة عبد العزيز الدوري، مجلة الرسالة سنة ١٩٤٠ الأعداد ٣٥٦/٣٥٧/٣٥٨.
- ١٩- الدوري: عبد العزيز الدوري: نشوء الأصناف في الإسلام. مجلة كلية الآداب جامعة بغداد العدد ١ سنة ١٩٥٩م.
- ٢٠- عاشور، سعيد عبد الفتاح: المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية.
- ٢١- واضح الصمد: الصناعات والحرف عند العرب في العصر الجاهلي.
- ٢٢- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب ج ٧.
- ٢٣- محمد عبد الستار عثمان المدينة الإسلامية مجلة عالم المعرفة- العدد ١٨ الكويت، آب ١٩٨٨- ص ١٧-٤٧.
- ٢٤- حلمي سالم: اقتصاد مصر الداخلي في العهد المماليكي.
- ٢٥- كتاب الملاية للسلمي: مخطوط ببرلين عن جبر الزر النقر: بعنوان الفتوة هل هي الفروسية الشرقية - دراسات إسلامية بيروت ١٩٦٠.
- ٢٦- فيمي عبد الرزاق سعد: العامة في بغداد بلا تاريخ.

□□□